جهود مستعربي القوقاز في دراسة الأدب العربي الحديث
(دراسات عايدة إيمانقولييفا لأدب المهْجَريين العرب نموذجًا)

د. سعد محمد عبد الغفار(*)

مقدِّمة:

بدأ الاسْتِشْراق Orientalism بين القرنَيْن (19/18م) مَذْهبًا موجَّهًا[1] إلى دراسة البُنَى الثَّقافيَّة والرُّوحيَّة كافَّة للشَّرق (العربي، والتُّركي، والفارسي)، فنشطت مدرستا الاستشراق الأوروبي والاستشراق الرُّوسي في دراسة علوم الشَّرق وآدابه وفنونه وثقافته وعقائده ... إلخ[2]، وأثمرت جهودهما عن مجموعة ضخمة من الدِّراسات والأبحاث وتحقيق النصوص المخطوطة في مختلف المجالات المعرفيَّة والحضاريَّة، إلَّا أنَّ مدرسة الاستشراق الرُّوسي تميزت عن نظيرتها الأوروبيَّة بالتَّجرد والحياديَّة إزاء المواد الشَّرقيَّة التي تتناولها بالدِّراسة والبحث. ولعلَّ في

(*) أستاذ البلاغة والنقد المساعد، كلية الآداب - جامعة الوادي الجديد، جمهورية مصر العربية.

(1) من وجهة نظر المركزيَّة الأوروبيَّة Eurocentrism؛ لتحقيق أهداف وأهواء إمبرياليَّة استعماريَّة. الأمر الذي أضحى معه مصطلح الاسْتِشْراق Orientalism بمرور الزَّمن لا ينفصل عن المنهج ونتائجه البحثيَّة، بوصفه شكلًا من أشكال الهيمنة التي حلَّت محل الاستعمار بمعناه التَّقليدي؛ ولذلك فضَّل المنصفون من المستشرقين - أمثال المستعرب البوسني أسعد دوراكوفيتش Esad Duraković - أن يُدْعَوا بالمستعربين Arabists؛ للانعتاق من التَّلوث المذهبي والأيديولوجي للاسْتِشْراق، والنَّأْي بأنفسهم عن تسلط المركزيَّة الأوروبيَّة على الشَّرق.

(2) أصبح الاستشراق ظاهرة رسمية مع صدور قرار مجمع (فيينا) سنة (1312م)، الذي تم على أساسه إنشاء أقسام للغات (العربية، والعبرية، والسريانية)، في عدد من الجامعات الأوروبية في (باريس) و(أكسفورد) و(بولونيا) و(بلجراد) وغيرها - تحت رعاية الكنيسة الكاثوليكية. انظر: الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق: إدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، الطبعة الأولى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة 2006م.

ذلك ما يفسِّر شعورها بعدم الارتياح حيال استخدام مصطلح الاستشراق Orientalism في دراساتهم الشَّرقيَّة، ومن ثَمَّ استبدلت – في مرحلة متأخرة نسبيًّا – بعض المصطلحات الأخرى المحايدة أيديولوجيًّا، مثل: الدِّراسات الشَّرقيَّة Oriental Studies، واللُّغات والآداب الشَّرقيَّة Eastern Languages and Literature والدِّراسات الشَّرق أوسطيَّة Middle Eastern studies، والفيلولوجيا الشَّرقيَّة Eastern Philology، وما شابه ذلك به. كما عمدت إلى تغيير أسماء بعض مراكز الاستشراق لديها في ظل المقاومة المتنامية لمذهبيَّة الاستشراق، فغيَّرت اسم معهد فوستكوفدنيا Востоковедение إلى معهد شعوب آسيا Институт народов Азии[1].

وتنتمي مستعربة القوقاز[2] البروفيسورة عايدة إيمانقولييفا Aida ImanQolayeva إلى مدرسة الدِّراسات الاستشراقيَّة الروسيَّة التي أسهمت بشكلٍ واضحٍ في دراسة الأدب العربي في العصر الحديث، لا سيما روَّاد مدرسة المهجر، حيث أفردت لهم عدَّة مقالات ودراسات مهمَّة تكشف عن فهمها العميق للاتجاهات الفنيَّة في الأدب العربي الحديث، وعن إلمامها بالظُّروف الحضاريَّة في المنطقة العربيَّة

(1) الدفاع عن الاستشراق: فرانشيسكو غابرييلي، مجلة ديوجين الفرنسيَّة، العدد (50)، 1965م، ص40 وما بعدها. يرد غابرييلي على مقالة أنور عبد الملك (الاستشراق مأزومًا) التي كانت قد نشرت في المجلة ذاتها في العدد (44) عام 1963، واستفزَّت عددًا من المستشرقين الغربيين إلى جانب غابرييلي من أمثال كلود كاهين، ومكسيم رودنسون. ولا ينكر غابرييلي أن بعض المستشرقين كانوا عملاء للاستعمار، مثل بعض القناصلة والسفراء والتجار والمبشرين والعسكريين والتقنيين، ولكنه يجزم أن غالب المستشرقين حملوا معهم اهتمامات علميَّة ورغبة جامحة في البحث عن الحقيقة التَّاريخيَّة والمعرفيَّة، بعيدًا تمامًا عن غايات بلدانهم السياسيَّة. ويؤكِّد أن الاستشراق توسَّع في مفهومه حتَّى انبثقت عنه في الغرب تخصصاتٌ عديدةٌ، و تولدت داخل هذه التخصصات تخصصات أكثر دقة.

(2) القوقاز أو القفقاز أو القفقاس أو بلاد القَبْق: منطقة جغرافية سياسية تقع عند حدود أوروبا وآسيا، وهي موطن جبال القوقاز، بما فيها أعلى جبل في أوروبا، جبل ألبروز. وغالبًا ما يقسم القوقاز إلى القوقاز الجنوبي والقوقاز الشمالي. (موسوعة المورد، منير البعلبكي، 1991م).

آنذاك، تلك الظروف التي ربطتها قوليفا بنهضة الأدب العربي الحديث، كما تدلُّ على اطِّلاعها الواسع على ما كُتِبَ في الدِّراسات الشَّرقية الرُّوسيَّة في أدب المهْجَريين العرب، كما سوف نرى.

- **أسباب اختيار الموضوع**:

- حاجة المكتبة العربيَّة الماسَّة إلى مزيد من الدِّراسات عن جهود مستعربي القوقاز في دراسة الأدب العربي في العصر الحديث.

- تمتع عايدة إيمانقولييفا A. ImanQolayeva بالتَّجرُّد والنَّزاهة العلميَّة في دراسة الأدب العربي الحديث.

- عدم وجود دراسات عربيَّة تتناول جهود المستعربة إيمانقولييفا في دراسة روَّاد مدرسة المهْجَر.

- **أهداف البحث**:

يهدف هذا البحث إلى الإجابة عن طائفة من الأسئلة تتعلَّق بجهود مستعربي القوقاز في دراسة الأدب العربي الحديث، نذكر منها:

- هل مثَّلت دراسات المستعربة عايدة إيمانقولييفا لروَّاد مدرسة المهجر استجابةً لتوجُّهات الخطاب الاستشراقي؟ أم أنَّها عبَّرت عن حياديَّة مستعربي القوقاز في الدِّراسات الشَّرقيَّة؟

- ما دوافع المستعربة عايدة إيمانقولييفا في دراسة أدب المهْجَريين العرب؟ وما ملامح منهجها في دراسته؟

- ما أهم النتائج التي توصَّلت إليها عايدة إيمانقولييفا في دراساتها للأدب العربي الحديث؟

- **الدِّراسات السَّابقة**:

لم أقف - فيما أُتِيحَ لي من دراسات - علىٰ دراسة تناولت دراسات ومقالات مستعربي القوقاز للأدب العربي في العصر الحديث؛ وقد كان ذلك من صعوبات البحث.

- **منهج البحث**:

اعتمد البحث علىٰ المنهج الوصفي التَّحليلي، حيث عرض لجهود المستعربة عايدة إيمانقولييفا A. ImanQolayeva - بوصفها من أهم مستعربي القوقاز - في دراسة روَّاد مدرسة المهجر، كما عرض لآرائها في أدب المهْجَريين العرب، ومناقشاتها لدراسات الباحثين العرب، والمستشرقين الرُّوس في أدباء المهجر، واعتراضها أحيانًا علىٰ بعض هذه الآراء. وقد عرضتُ لذلك كلِّه مع التَّعليق علىٰ بعض آرائها في ضوء الممارسات النَّقديَّة لبعض الأكاديميين العرب الذين تناولوا أدباء مدرسة المهجر بالدِّراسة والبحث.

وقد جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، مبحثين، وخاتمة، وذيِّل بثَبَت بأهم المصادر والمراجع، وذلك علىٰ النَّحو الآتي:

- تمهيد: المستعربة عايدة إيمانقولييفا، نشأتها وحياتها العلميَّة.

- المبحث الأول: منهج المستعربة عايدة إيمانقولييفا في دراسة روَّاد مدرسة المهجر.

- المبحث الثَّاني: نتائج دراسات المستعربة عايدة إيمانقولييفا في دراسة المهْجَريين العرب.

- خاتمة: بأهمِّ نتائج البحث وتوصياته.

تمهيد

المستعربة عايدة إيمانقولييفا
(نشأتها وحياتها العلمية)

وُلِدتْ البروفيسورة عايدة إيمانقولييفا A. Imanqolayeva (1939-1992م) في باكو Baku لعائلة نبيلة، ذات مكانة مرموقة في المجتمع الأذربيجاني. وقد أتاحت لها ظروف النَّشأة الانفتاحَ على الثَّقافة والأدب العربيَّيْن، فوالدُها كان كاتبًا وصحفيًّا مبرَّزًا، وواحدًا من أهم مؤسِّسي وسائل الإعلام في أذربيجان، وكان يمتلك مكتبة غنية بآداب الشَّرق، وجدت فيها ابنتُه عايدة ما يصلها بعالم الشَّرق السِّحري، فأقبلت على قراءة آداب الشَّرق وتاريخه، لا سيما آداب رواد مدرسة المهجر أمثال: جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وأمين الريحاني... وغيرهم.

التحقت قولييفا بكلية الدِّراسات الشَّرقيَّة، فدرست آدابَ الشَّرق، واطلعت على رموز الأدب العربي الحديث. وبعد تخرجها في كلية الدِّراسات الشَّرقيَّة بدرجة امتياز مع مرتبة الشَّرف، قرَّرت قولييفا، وبوازعٍ من رغبتها في التَّعرف إلى العالم العربي والتقرُّب منه، ومدِّ جسور التَّعاون والتَّقارب معه، قرَّرت أن تستمر في دراساتها للدَّراسات الشَّرقيَّة، فكانت أول امرأة أذربيجانيَّة تشتغل بالدِّراسات الشَّرقيَّة Oriental Studies، حتَّى غدت من أهم رموز الاستشراق الرُّوسي Orientalism Russian آنذاك[1] - أو مستعربي القوقاز - فكانت عضوًا مهمًّا في

(1) لم يكن في مُكْنَةِ جمهوريَّة أذربيجان قبل استقلالها عن الاتحاد السُّوفيتي في عام 1991م، أن تنفرد ببناء علاقات سياسيَّة أو اقتصاديَّة أو ثقافيَّة مع الدول العربيَّة، وهو ما يعني أنَّها ظلت فترة طويلة بعد إنشاء أقسام للدراسات الشَّرقيَّة بجامعاتها لا تملك القدرة على التَّواصل بشكلٍ مباشرٍ مع الجامعات العربيَّة والأساتذة المتخصصين من الأكاديميين العرب الذين يمكن الإفادة من جهودهم العلميَّة في خدمة الدِّراسات الشَّرقيَّة. انظر:
Aida İmanquliyeva-Azərbaycan şərqşünaslığının parlaq siması Dünyamalı VƏLİYEV-Xalq qezeti 10. 2015. Baku.

جمعية المستشرقين السُّوفيت. ومن ثَمَّ أُسنِدت إليها رئاسة معهد الدِّراسات الشَّرقيَّة في باكو، منذ عام (1991م) حتىٰ وفاتها (1992م).

- **حياتها العلميَّة**:

قدَّمت قوليفا في ميدان الدِّراسات الشَّرقيَّة العديد من الدِّراسات والأبحاث في مختلف فروع الأدب العربي، فأثرت مكتبةَ الدِّراسات الشَّرقيَّة بثلاثةِ كتبٍ عن المهْجَريين العرب؛ لتكون بذلك أول مستعرِبة قوقازية Arabist Caucasian تتخصص في أدب المهجر العربي[1]. وهذه الكتب هي:

1- أُطروحتها للدكتوراه تحت عنوان (مجموعة الرَّابطة القلميَّة وميخائل نعيمة). باكو، 1966م. عرضت فيها لفكرة إنشاء الرَّابطة القلميَّة عام 1916م، وكيفيَّة تأسيس الرَّابطة في نيويورك عام 1920م علىٰ أيدي مجموعة من الأدباء المهاجرين من سوريا ولبنان، وذلك بأسلوب علمي رصين يعبِّر عن فكرٍ وثقافةٍ واسعةٍ. وقد ربطت في عنوان أطروحتها بين الرَّابطة القلميَّة وميخائيل نعيمة بوصفه مَنْ دوَّنَ مَحاضِر جلسات تأسيس تلك الرَّابطة؛ بقصد ضمِّ قُوىٰ أدباء المهجر وتوحيد مسعاهم في سبيل اللُّغة وآدابها.

2- جبران خليل جبران، حياته وأدبه، دار العلم للنشر، باكو، 1975م. عرضت إيمانقولييفا في هذه الدراسة المستفيضة، بأسلوب مبسَّط، لحياة جبران خليل جبران وأدبه، وقامت بتحليل شخصيته من خلال كتاباته.

3- أعلام الأدب العربي الجـديد - دراسة في أدب رواد مدرسة المهجر، مؤسسة حيدر علييف، باكو - أذربيجان، 1427هـ/2006م. وكشفت إيمانقولييفا

(1) أذربيجان فردوس الله في قلب القـوقاز: زعيم خنشـلاوي، ترينـد نيـوز، باكو، 15 أكتوبر 2009م.

في هذا الكتاب عن الصُّورة الكاملة للواقع الرُّوحي والثَّقافي لتلك الفترة التَّاريخية، وخلود الرُّوح العربيَّة، من خلال عرضها لإبداع ثلاثة من رواد الأدب العربي: جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمه، أمين الريحاني، فقامت بتحليل القضايا الرئيسة في تقدُّم الأدب، وتقديم الفكر الاجتماعي والفني لتلك الفترة، والدور الاجتماعي للأدب، وقيمته التَّربويَّة، وترابط الأدب مع الحياة. وقد كان لهذا الكتاب صدًى واسعٌ بين العلماء العرب وعلماء الدِّراسات الشَّرقيَّة البارزين في العديد من الدول، الذين أشادوا بعملها المثمر الممتد لسنوات عديدة. كما أَثْرَتِ الدِّراسات الشَّرقيَّة بأكثر من 70 مقالة علميَّة، نذكر منها[1]:

- شخصيات بارزة في الأدب العربي الجديد، باكو، 1991م.

- ينابيع العلاقات الثَّقافيَّة والأدبيَّة العربيَّة الرُّوسيَّة، مجموعة الشَّرق الأوسط والأدنى، باكو، 1986م.

- ميخائيل نعيمة والأدب الرُّوسي في النِّصف الأول من القرن التَّاسعَ عشرَ، مجلة أذربيجان، العدد (12)، 1964م.

كما حررت المادة العلمية للعديد من الكتب والمقالات العلميَّة، وترجمت كتاب (الإنسان والطَّائر) وشاركت في تأليفه[2].

وهو ما يعني أنَّها أسهمت إسهامًا حقيقيًّا في إثراء مكتبة الدِّراسات الشَّرقيَّة ببحوثها العلمية القيمة، التي كانت سببًا في تأسيس اتجاه ومدرسة في الدِّراسات العربية في الدِّراسات الشَّرقيَّة في القوقاز.

---

(1) لها أيضًا: (قضايا علم لغة الشَّرق)، و(قضايا الشَّرق: التَّاريخ والحداثة)، و(دور الرَّوابط الأدبيَّة في تشكيل الأدب العربي)، و(مشاكل فقه اللُّغة الشَّرقية).

(2) عايدة إيمانقولييفا - العالمة الأذربيجانيَّة التي كرَّست حياتها للدِّراسات العربيَّة والشَّرقيَّة: آسيا حاجي زاده، وكالة أنباء أذر تاج - باكو. 9 أكتوبر، 2018م.

هذا، فضلًا عن إشرافها على أكثر من عشرة رسائل علميَّة بوصفها أستاذة للأدب العربي وعلم اللُّغة في كلية الاستشراق بجامعة أذربيجان الحكوميَّة.

وقد اتصفت الدكتوره قولييفا - شـأنها في ذلك شـأن كثير من مستعربي القوقاز - بحماسها وحبها للغة العربيَّة، وتعلقها بالأدب العربي الحديث، وبتجرُّدها، ومنهجها العلمي المنضبط المتَّسِم بحياديَّة العلم ونزاهته، نائيةً بنفسها عن الانخراط في أيديولوجيات وأهواء تفرض خطابًا بعينه على دراساتها الاستشراقيَّة.

أبدت عايدة قولييفا Qolayeva - إذًا - عنايةً كبيرةً بالدِّراسات الشَّرقية عامَّةً وبالأدب العربي الحديث خاصَّةً، فقدَّمت دراساتٍ ومقالاتٍ معمَّقةً عن كثير من الأدباء العرب، أمثال: طه حسين، ونجيب محفوظ، ويوسف السِّباعي، ولويس عوض، وتوفيق الحكيم، وغيرهم. وأَوْلَت أدباءَ المهجر عنايةً خاصَّةً، حيث حصلت عام 1966م على درجة الدكتوراه عن أطروحتها (مجموعة الرَّابطة القلميَّة وميخائل نعيمة)؛ لتكون بذلك أول باحثة أذريَّة في أدب المهجر العربي[1]، حيث أفردت لأدباء المهجر دراسة أخرى بعنوان (أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب رواد مدرسـة المهجر)[2]، تناولت فيها مظاهرَ تأثُّر مدرسـة المهجر أو المدرسـة السُّـوريَّة الأمريكيَّة[3] بالرُّومانسيَّة الأمريكيَّة والأوروبيَّة، والواقعيَّة

(1) عايدة إيمانقولييفا - العالمة الأذربيجانيَّة ... المصدر السَّابق.

(2) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب رواد مدرسة المهجر: عايدة إيمانقولييفا، مؤسسة حيدر علييف، باكو- أذربيجان، 1427هـ - 2006م.

(3) وفقًا لتسمية المستشرق الرُّوسي إ. كراتشكوفسكي Крачковский, Игнатий Юлианович (1883-1951م) أحد مؤسِّسي مدرسة الاستشراق الرُّوسي، الذين تأثَّرت الدكتوره عايدة قولييفا في دراساتها لأدب رواد مدرسة المهجر بدراساتهم وترجماتهم الكثيرة لأدباء المهجر. فمن دراساته:
- الأدب العـربي في أمريكـا (1885-1915م)، أخبـار جامعـة لينينغراد، ج1، لينينغراد، 1928م. =

النَّقديَّة الرُّوسيَّة، وملامح تطور إبداعها الأدبي[1]. وبذلك تكون قد أسهمت في تقديم الآداب الاستشراقيَّة للشَّرقيين أنفسهم، فضلًا عن الغربيين. فكانت «أول العلماء في أذربيجان الباحثين بمنهجيَّة عن التَّأثير المتبادل والرَّوابط الأدبيَّة المتبادلة بين الثَّقافات الشَّرقيَّة والغربيَّة، فقد أولت القيم الإنسانيَّة المشتركة اهتمامًا كبيرًا»[2].

المبحث الأول

منهج عايدة قولييفا

في دراسة المهجريين العرب

السُّؤال الذي نطرحه - هنا - هو: ما ملامح الخطاب الاستشراقي لدى عايدة إيمانقولييفا في دراستها لروَّاد مدرسة المهجر؟

والإجابة عن هذا السُّؤال ستحدد لنا طبيعة المنهج الذي اتبعته المستعربة إيمانقولييفا في دراستها لأدب المهْجَريين العرب.

ولعـلَّ أوَّل ما يلفتنا في دراسات قولييفا Qolayeva لروَّاد مدرسة المهجر، هو:

= - مقدمة لكتاب أمين الريحاني، المختارات، المجلد الثَّالث، موسكو، لينينغراد 1956م.
- أمين الريحاني، المختارات، بطرسجراد، 1917م.
- النثر العربي الرومانسي في القرنين التاسع عشر والعشرين، لينينغراد، 1981م.
- جبران خليل جبران، المختارات، لينينغراد، 1986م.

(1) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب رواد مدرسة المهجر، ص12.

(2) عايدة إيمانقولييفا - العالمة الأذربيجانيَّة التي كرَّست حياتها للدِّراسات العربيَّة والشَّرقيَّة: آسيا حاجي زاده، وكالة أنباء أذر تاج - باكو. 9 أكتوبر، 2018م.

1- تجرُّدها، وتمتعها بالنَّزاهة العلميَّة في تناولها للدِّراسات الشَّرقيَّة[1]:

بدت النَّزاهة واضحةً في تصريحها بفضل الثَّقافة العربيَّة على الآداب العالميَّة في القرون الوسطى Middle Ages[2]، تلك الثَّقافة التي «أسهمت إسهامًا ملحوظًا في النَّهضة الثَّقافيَّة لتلك العصور»[3]، حتَّى غدت جزءًا لا يتجزَّأ من الحضارة الإنسانيَّة آنذاك. وهو ما يعني أنَّها لم تتبع خطابًا استشراقيًّا ذا عوج، توجِّهه الأيديولوجيات والأهواء الإمبرياليَّة الاستعماريَّة، وإنَّما جاء خطابها خطابًا علميًّا بعيدًا عن الأفكار المسْبَقة عن الشَّرق، تلك الأفكار السَّلبيَّة التي روَّجت لها المركزيَّة الأوروبيَّة Eurocentrism في خطابها الاستشراقي، إذْ راحت تُطنطِنُ بأنَّ الشَّرق: «لا يملك القدرةَ على تقديم نفسِه بنفسِه...»[4]، وأنَّ الشَّرقيين: «لا يستطيعون أن يمثِّلوا أنفسَهم، ولا بدَّ أن يمثلهم أحد»[5]؛ في الوقت الذي كان كثيرٌ من رموز الاستشراق الرُّوسي يعلنون في جرأة عن أصولهم الشرقيَّة، ومن ثَمَّ يُبدون احترامًا وإجلالًا كبيرَيْن للشَّرق والشَّرقيين؛ فهذا «أمير الشُّعراء الرُّوس

---

(1) تفضِّل المدرسة الرُّوسيَّة في الاستشراق استخدام مصطلح الدِّراسات الشَّرقيَّة Oriental Studies بدلًا من مصطلح الدراسات الاستشراقية Orientalist Studies، أو الاستشراق Orientalism الملوث أيديولوجيًّا؛ لخضوعه المركزيَّة الأوروبيَّة Eurocentrism الرَّاميةِ إلى تحقيق أهداف إمبرياليَّة استعماريَّة؛ ولذلك اتَّصفت مدرسة الاستشراق الرُّوسي بالاعتدال بشكلٍ ملحوظٍ في دراستها للبُنَى الثَّقافيَّة والرُّوحيَّة كافَّة للشَّرق، وهو أمر افتقدته مدرسة الاستشراق الأوروبي.

(2) سيظل التَّاريخ يذكر أنَّ العربَ والمسلمين ظلوا مُلهِمين للغرب على مدى قرونٍ عدَّة، عاشت فيها أوروبا تتخبط في ظلمات الجهل والتَّخلُّف؛ بينما كانت تنظر آنذاك إلى الشَّرق بعين الإجلال والإكبار بوصفه مجتمع الإنسان الأعلى؛ لريادته في العلوم والآداب والفنون، حتَّى غدا الشَّرق بحضارته العريقة وتراثه الثري مصدرَ إلهامٍ لكلِّ جليلٍ وعظيمٍ لدى كبار أدباء أوروبا وشعرائهم وفلاسفتهم ومفكريهم.

(3) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب رواد مدرسة المهجر، ص9.

(4) الاستشراق، المفاهيم الغربية للشَّرق: إدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، الطبعة الأولى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة 2006م، ص275.

(5) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب رواد مدرسة المهجر، ص70.

ألكسندر بوشكين يتحدث في قصيدته هذه عن جذوره الشَّرقيَّة[1]، التي كتبها من وحي العربي أو محاكاة العربي، وهو في منفاه في أوديسا في جنوب روسيا عام 1835»[2].

يقول بوشكين Пу́шкин:

- «فتىٰ جذَّاب، فتىٰ دَمِث،
- لا تخجل منِّي فنحنُ أهل،
- وبداخلنا لهبٌ عاصف،
- ونعيش حياةً واحدة،
- لقد تآلفنا معًا:
- تمامًا مثل جَوْزةٍ مزدوجة،
- أسفل قشرة واحدة»[3].

2- عدم عزل الأدب العربي الحديث عن الوضع الحضَّاري الذي لازم نشأته:

ترىٰ إيمانقولييفا أن دراسةَ ظاهرةٍ أدبيةٍ مهمةٍ مثل مدرسة المهجر، تقتضي الوقوف علىٰ مجموعة من العوامل التي لعبت دورًا مهمًّا في نشأتها. ومن ثم لم تعزل قولييفا الأدب العربي في العصر الحديث عن الوضع الذي لازَمَ نشأته، بكلِّ جوانبه السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، والثَّقافيَّة، وهذا أمر واجب - ولا بدَّ - عند دراسة آداب الأمم وثقافتها، حيث ذهبتْ كما ذهبَ

(1) تعود جذور بوشكين (1799-1837م) Алекса́ндр Серге́евич Пу́шкин إلىٰ الشَّرق، فقد جاء إلىٰ روسيا عن طريق جدة البحَّار الإثيوبي الذي ظل في روسيا. وفي أوديسا تعرَّف بوشكين إلىٰ بحَّار مصري عربي، ومن هنا يقول: «لقد تآلفنا معًا مثل جَوْزة مزدوجة». ينظر: مكارم الغمري، مؤثرات عربيَّة وإسلاميَّة في الأدب الرُّوسي، عالم المعرفة 1991م.

(2) مقدمة في الأدب العربي والاستشراق الرُّوسي: عمر محاميد، جامعة النّجاح الوطنية، نابلس، الطبعة الأولىٰ، 2015م، ص17.

(3) المصدر نفسه.

غيرُها[1] إلى التَّأريخ لبداية اتساع علاقات العالم العربي بالغرب بأواخر القرن الثَّامنَ عشرَ بعد الحملة الفرنسيَّة على مصر وسوريا (1798-1801م)[2]، حيث بَدَتْ مَخَايِلُ الازدهار والارتقاء تَسِمُ الأدب المصري - آنذاك - بميسامها، ثم تنساب شيئًا فشيئًا في الأدبَيْن السُّوري واللبناني معًا[3]، وإنِ استأثرت بيروت - لاحقًا - بحظٍّ أوفر، نتيجة للنشاط الثَّقافي والعلمي والاجتماعي، والصَّحفي الذي قامتْ به عدَّةُ منظمات تُعنَىٰ بالشَّأن الأدبيِّ والعلميِّ والاجتماعيِّ والصَّحفيِّ آنذاك، فضلًا عن إقبال مثقَّفيها على ترجمة الآثار الأدبيَّة في الغرب، والتَّأثُّر بالحريات التي تسود المجتمع الغربي على المستويات كافَّة، حتَّىٰ غدت بيروت معقلًا للثَّقافة الغربيَّة في الشَّرق، خاصَّةً مع ازدياد المد التَّبشيري الرُّوسي، والفرنسي، والإنجليزي، والأمريكي بها، وإنشاء الجامعة الأمريكية بها عام (1866م)، ثم جامعة القديس يوسف (1874م)[4]، ووجود المطابع الحديثة، ونشاط حركة التَّرجمة. وهو ما أدَّىٰ بدوره إلى قيام حركة تنويريَّة، وظهور طبقة متميزة من المثقفين القوميين العرب، الذين انشغلوا بقضايا وطنهم السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة في ظل تنامي الأطماع الأوروبيَّة في العالم العربي.

---

(1) ف. لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار الفارابي، بيروت - لبنان، الطبعة التاسعة، 2007م، ص3-54.

(2) يَسُوق المستعرب البوسني البروفسيور أسعد دوراكوفيتش الأمثلة على شَرقَنة / تَشْرِيق Orientalization الشَّرق بوصفه الغاية النِّهائية للاستشراق، فيرىٰ أنَّ من الأدلة التي توضح ذلك حديث «جميع كتب التَّاريخ في الغرب - الكتب العامَّة والأدبيَّة على حدٍّ سواء- عن نهضةٍ عربيَّةٍ تحت التَّأثير الحصري لأوروبا، وهي تربط - بشكل مستمرٍّ ومثيرٍ للدَّهشة - بين هذه النَّهضة العربيَّة وغزو نابليون لمصر». انظر: دراسات في أدب البوسنة والهرسك وفي الأدب العربي: أسعد دوراكوفيتش، ترجمة: جمال الدِّين سيد محمد، الطبعة الأولىٰ، المركز القومي للتَّرجمة، العدد (1907)، القاهرة 2011م، ص47.

(3) كانت سوريا ولبنان - آنذاك - بلدًا واحدًا.

(4) ينظر: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين: فيليب حتِّي، بيروت، 1959م، 2/352-356.

راعت المستعربة إيمانقولييفا - إذًا - في دراستها لأدب المهْجَريين العرب عدم عزل الأدب عن وضعه الحضاري، وليس أدلّ على هذا من تناولها في كتابها (أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب رواد مدرسة المهجر) للحياة الاجتماعيَّة والسياسيَّة في لبنان في أواسط القرن التَّاسعَ عشرَ وأوائل القرن العشرين[1]، حيث عرضت لأسباب هجرة الأدباء العرب، في نهايات القرن التَّاسعَ عشرَ، وربطت بعض التَّغيرات السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة في العالم العربي في سبعينيات القرن التَّاسعَ عشرَ، بهجرة الأدباء العرب. فرأت أنَّ من أبرز هذه التَّغيرات افتتاح قناة السويس عام (1868م)، هذا الافتتاح الذي فَقدَتْ بيروت معه أهميتها بوصفها ميناءً حيويًّا، وهو ما انعكس بدوره على الأوضاع الاقتصاديَّة في لبنان، حيث «ركدتِ التِّجارة تدريجيًّا، وأُهمِلتِ المهن والمشاغل، وأفلسَ الفلاحون، وقبل ذلك عمَّت البلادَ صداماتٌ طائفيَّةٌ على خلفيات دينيَّة»[2]. ومن ثَمَّ تدهورتِ الأوضاعُ السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة جرَّاء ذلك، مِمَّا دفعَ طائفةً مهمة من اللبنانيين إلى الهجرة إلى كندا، والولايات المتحدة الأمريكيَّة، وبعض دول أمريكا الجنوبيَّة، مثل: البرازيل، والأرجنتين، وتشيلي، وفنزويلا[3]. فكوَّنُوا ما يُعرف في تاريخ الأدب العربي الحديث بـ«مدرسة المهجر»، وما عُرِفَ لدى بعض المستشرقين الرُّوس بـ«المدرسة السُّوريَّة الأمريكيَّة»[4]. وقد عاش أدباء تلك المدرسة، أمثال: جبران خليل جبران، ومخائيل نعيمة، وأمين الريحاني، ونبيه فارس، وحبيب إسطفان ... إلخ، عاشوا في أُلْفةٍ فكريَّة مع بيئتهم الجديدة،

(1) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب رواد مدرسة المهجر، ص29-40.
(2) المصدر نفسه، ص11.
(3) أدب المغتربين: إلياس قنصل، دمشق 1963م.
(4) الأدب العربي في القرن العشرين: إغناطيوس كراتشكوفسكي، لينينغراد، 1964م، ص17-25 .

وإنْ شعروا بالغربة الحسِّية؛ لبعدهم عن أوطانهم[1]، التي انشغلوا بقضاياها، والتَّنديد بالظُّلم والاستبداد والجهل المستشري في أوصالها.

وترى المستعربة إيمانقولييفا أنَّ دراسة الآثار الأدبيَّة لروَّاد مدرسة المهجر، أو قل - وفقًا لمصطلحها - المدرسة السُّوريَّة الأمريكيَّة: «وتأثُّرهم بالرُّومانسيَّة الغربيَّة، والواقعيَّة النَّقديَّة الرُّوسيَّة، إنَّما هو دراسة لتاريخ تأثُّر الأدب العربي الجديد بالاتجاهات الأدبيَّة والفنيَّة المختلفة في الأدب العالمي»[2].

وإذْ تربط قولييفا بين الأدب وواقعه الاقتصادي والسِّياسي والثَّقافي، فإنَّها تُظهر من خلال ذلك الصُّورةَ الكاملةَ للواقع الرُّوحي والثَّقافي لتلك الفترة التَّاريخيَّة، وخلود الرُّوح العربية التي جسَّدها روَّاد مدرسة المهجر بوضوحٍ بيِّن.

- دوافع قولييفا في دراسة أدب روَّاد مدرسة المهجر:

نشطت حركة التَّرجمة من العربيَّة إلى الرُّوسيَّة في العهد السُّوفيتي مع تأسيس اتِّحاد الكتَّاب السُّوفيت، الذي نهض بمسؤولية تعريف السُّوفيت بروائع الأدب العالمي، فتألَّفت لجنةٌ تُعنَى بترجمة روائع الآداب الأجنبيَّة، وكان من آثار ذلك أن نشطت حركة ترجمة الأدب العربي إلى الرُّوسيَّة، تلك الحركة التي استأثر فيها الأدبُ العربي المعاصر بالنَّصيب الأوفر بين التَّرجمات العربيَّة الكلاسيكيَّة والحديثة، ومن ثَمَّ نشطت حركة النَّقد والدِّراسات الاستشراقيَّة المعنية بتحليل الأدب العربي والتَّعريف به ونَقْده؛ وكان من نتائجها ترجمة (ألف ليلة وليلة)[3]، وأشعار عنترة، وامرئ القيس، ومجنون ليلى، والمتنبي، وأبي العلاء المعري، وأبي نُواس،

(1) قصة الأدب المهجري: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، 1973م، ص10.

(2) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب رواد مدرسة المهجر، ص11.

(3) أسهمت (ألف ليلة وليلة) في القرن الـ(19م) في الدِّراسات الشَّرقيَّة، بل نشأت مدرسة أدبيَّة في أوروبا لما سمي بـ«الرِّوايات والحكايات الشَّرقيَّة».

وغيرهم. كما أبدىٰ المستشرقون السُّوفيت عنايةً بالغةً بالأدب العربي المعاصر؛ الأمر الذي أتاح للقارئ السُّوفيتي التَّعرُّف إلىٰ أدب نجيب محفوظ، ومحمود تيمور، وتوفيق الحكيم، ويوسف إدريس، وطه حسين، وميخائيل نعيمة، وجبران خليل جبران، وأمين الريحاني وغيرهم[1].

وتُعدُّ المستعربة عايدة إيمانقولييفا من كبار الأكاديميين السُّوفيت الذين أولَوا أدبَ المهْجَريين العرب عنايةً خاصَّة، فهي ترىٰ أنَّه لا يمكن تصور تطور الأدب العربي الحديث بدون إبداعاتهم، وهي عناية تأتي من عدَّة جهات، أهمها:

- الوقوف علىٰ دور الاتجاهات الأدبيَّة والفنيَّة المختلفة في الأدب العالمي في تشكيل السِّمات الجماليَّة والفكريَّة للأدب العربي المعاصر، والذي يختلف عن أدب أواخر القرون الوسطىٰ.

- الوقوف علىٰ مظاهر تأثُّر أدباء مدرسة المهجر بالاتجاهات الأدبيَّة والفنيَّة المختلفة في الأدب العالمي، مثل الرُّومانسيَّة الأمريكيَّة والأوروبيَّة، والواقعيَّة النَّقديَّة الرُّوسيَّة.

- الوقوف علىٰ ملامح التَّطور الاتصالي في الآداب الشَّرقيَّة الجديدة، فضلًا عن استعراض مسيرة تكوُّن المناهج الإبداعيَّة والاتجاهات الأدبيَّة فيها[2].

فالهدف - إذًا - من دراسة قولييفا لأدب روَّاد مدرسة المهجر، كما تصرِّح هي، هو «إظهار وإدراك طُرق استفادة المدرسة السُّوريَّة الأمريكيَّة من تجربة الأدب العالمي، والتي ترتقي في الواقع إلىٰ مستوىٰ أعلىٰ من التَّطور، وتخلق منهجًا إبداعيًّا جديدًا في الأدب القومي»[3].

---

(1) فلسطين في أدب الرحَّالة الرُّوس: عمر محاميد، مركز الدِّراسات الرُّوسيَّة، 1995م.
(2) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص13.
(3) المصدر نفسه، ص13.

- **مظاهر تأثُّر أدباء المهجر بالآداب العالميَّة**:

نطرح هنا أسئلة ثلاثة مهمة مفادها: هل ثمة مظاهر تؤكِّد تشابك الاتجاهات الغربيَّة والشَّرقيَّة في تجرِبة مدرسة المهجر؟ وما مظاهر استفادة روَّاد مدرسة المهجر من الرُّومانسيَّة الأمريكيَّة والأوروبيَّة، والواقعيَّة النَّقديَّة الرُّوسيَّة؟ وهل كان تأثُّر روَّاد مدرسة المهجر بالرُّومانسيَّة ناتجًا عن تصوراتهم الشَّخصيَّة، أم كان نتيجة للعوامل الموضوعيَّة والظُّروف الحضاريَّة أيضًا؟

وحقيقة فإن التَّأثير ليس مجرد هزَّة ميكانيكيَّة تأتي من الخارج، أو واقعًا تجريبيًّا للسيرة الشَّخصية للأديب، أو اطلاعًا على كتاب جديد... إلخ. وإنَّما: «كي تصبح الظَّاهرة مُمكِنةَ التَّأثير يجب أن تكون ثمة حاجة لمثل هذا الاستيراد العقائدي، وينبغي وجود نزعات التَّطور الشَّبيهة في المجتمع والأدب»[1]. ومن ثَمَّ فإنَّ علينا - هاهنا - أن نبحث فيما وراء التَّصورات الفرديَّة لأدباء المهجر في تأثُّرهم بالرُّومانسيَّة الغربيَّة.

لقد بدت مظاهر تأثُّر أدباء المهجر بالرُّومانسيَّة الفرنسيَّة والأمريكيَّة - من وجهة نظر قولييفا - واضحةً في استيعاب جبران والريحاني للرُّومانسيَّة الغربيَّة بوصفها منهجًا إبداعيًّا، عبَّرا من خلاله عن موقفيهما إزاء متطلَّبات الواقع العربي يومئذ. وهو ما يعني أنَّ نشاط الأدباء العرب في المهجر وتأثُّرهم بالرومانسية الغربيَّة آنذاك، كان استجابةً طبيعية للظرف الحضاري الذي تعيشه أمَّتهم العربيَّة حينئذ، فضلًا عن كونه استجابة «لاحتياجات هذه الأمة التي تدخل مرحلةً جديدة من التَّطور التَّاريخي»[2].

وإذا كان جبران والريحاني قد استوعبا الرُّومانسيَّة الغربيَّة بوصفها منهجًا

---

(1) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص51.
(2) المصدر نفسه، ص34.

إبداعيًّا. فقد اعتمد ميخائيل نعيمة (1889-1988م)، وعبد المسيح حدَّاد (1890-1963م)، ونسيب عريضة (1887-1946م) - تلاميذ المدارس التبشيرية الرُّوسيَّة - على مبادئ الواقعيَّة النَّقديَّة الرُّوسيَّة التي استقَوْها من إبداعات الكلاسيكيين الرُّوس ومنهجهم[1] أمثال: جوجول، وديستويفسكي، وتشيكوف، وتولستوي، ومكسيم جوركي، وغيرهم، لا سيما أنَّهم كانوا يجيدون الرُّوسية، ويطَّلعون باستمرار على الأدب الرُّوسي[2]. وهي واقعيَّة نهضت بمسؤوليتها تجاه تحرير الفلاح من القهر والظُّلم، ومقاومة الفقر والاستبداد؛ لأنَّها تغلِّبُ عاملَ الخير والثِّقة بالإنسان وقدرته، وهي مدينة في كثير من أسسها النَّظرية للثورة البَلْشَفيَّة (1917م).

وقد ذهب محمد عبد المنعم خفاجي إلى: «أنَّ الأدب المهجري أدبٌ واقعيٌّ في أكثره، يتجاوب مع الحياة والحضارة، إذا استثنينا جبران وكتاباته الصُّوفيَّة...»[3].

وترى قوليفا في هذا الصَّدد أيضًا أن الأدب العالمي أثار كوامنَ الإبداع في نفوس شعراء المهجر، أمثال: جبران، ونعيمة، والريحاني، حتَّى أضحى تأثُّرهم بالأدب العالمي دافعًا يستنفِرُ مَلَكات إبداعاتهم، تلك الإبداعات التي مزجوا فيها القيمَ الفنيَّة للآداب الأوروبيَّة والأمريكيَّة بتقاليدهم القوميَّة، فجاءت مستوعِبةً بشكلٍ واضحٍ لمنجَزات الآداب العالميَّة ومتجاوبةً معها، لا سيما أنَّهم رأوا في تلك الآداب تعبيرًا عن الاحتياجات الملحَّة للتنمية الاجتماعيَّة في

(1) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص12. برزت الواقعيَّة في الأدب الرُّوسي في الأربعينيات من القرن الـ19م، وسعى معظم أتباعها إلى إعطاء صورة صادقة عن الحياة والدعوة في الوقت نفسه إلى الإصلاح الاجتماعي. وفي البداية جمع الأدباء خصائص رومانسيَّة وواقعيَّة في كتاباتهم.

(2) ينابيع العلاقات الثقافية والأدبية العربية الروسية: عايدة إيمانقولييفا، مجموعة (الشرق الأوسط والأدنى)، باكو، 1976م، ص147-172.

(3) قصة الأدب المهجري، ص145.

البلدان العربيَّة[1]. فالرُّومانسيَّة الأمريكيَّة مثلًا هي رومانسيَّة مستوعبة للحياة بكلِّ مذاهبها وألوانها وفنونها. وهذا ما صادف هوًى في نفوس المهْجَريين العرب الذين صَدَروا في كثير من إبداعاتهم عن استجابة موضوعيَّة لقضايا أمَّتهم يومئذ.

إنَّ استيعاب أولئك المهْجَريين لمنجَزات الآداب العالميَّة - التي أتقنوا لغاتها وتجاوبهم الإيجابي معها - هو ما حَدا بكثير من النُّقاد والأكاديميين العرب إلى وصف الأدب المهجري بأنَّه: «أدبٌ ثقافيٌّ ناضجٌ، تقدُّميٌّ، كاملُ التَّفاعل مع الحضارة الأمريكيَّة، وهو أدبٌ مشغولٌ بالحياة وجميع مقوماتها، متفاعلٌ معها غاية التَّفاعل، وجدانيًّا وفكريًّا بصورة إيجابيَّة»[2]، ويجاري الوسط الحضاري الذي نشأ فيه، ويستوعب خصائصه الحضاريَّة. حتَّى غدت نجاحاتُه في هذا الوسط الحضاري الجديد نجاحاتٍ تضاف إلى الأدب العربي في العصر الحديث بشكل عامٍّ. كما أضحى روَّاده أمثال جبران ونعيمة والريحاني يُعدُّون من جملة: «المشاركين كاملي الحقوق في الحركة الأدبيَّة العالميَّة، بل ومن دعاة القيم الفنيَّة الجديدة»[3]، على حدِّ قول إيمانقولييفا. وهو ما يعني أنَّ تأثر نعيمة بالأدب الغربي لم ينل من أصالته الأدبيَّة، وإنَّما يدل على سَعة أُفقه واطلاعه، وقدرته على تجاوز المحدودية القومية إلى العالمية[4].

وترى قولييفا أنَّ مدرسة المهجر نشأت استجابةً لاحتياجات الأمة العربيَّة النَّاهضة، «والمرحلة الجديدة في تطورها التَّاريخي، فقد شعر الأدباء المغتربون بضرورة الاطِّلاع عن قرب على منجَزات الثَّقافات والآداب الغربيَّة الحاملة

(1) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب رواد مدرسة المهجر، ص13.
(2) قصة الأدب المهجري، ص145.
(3) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب رواد مدرسة المهجر، ص51.
(4) المصدر نفسه، ص57.

للأفكار والأشكال الجديدة التي كان يحتاجها الأدباء العرب؛ لتجسيد الواقع التَّاريخي حينذاك. وقد أدَّىٰ بهم هذا بطبيعة الحال إلىٰ البحث عن وسائل ومناهج فنيَّة جديدة»[1]، تُعنىٰ بالكشف عن الواقع بوصفه موضوعًا للاستيعاب الجمالي، لا سيما لدىٰ أصحاب الاتجاه الواقعي في الشعر، كما هو الحال عند ميخائيل نعيمة، ونسيب عريضة، وعبد المسيح حدَّاد. وفي الرِّواية كما هو الحال عند الشقيقين محمود تيمور (1894-1973م)، ومحمد تيمور (1892-1921م)، ومحمد حسين هيكل (1892-1958م)، وطه حسين (1889-1973م) ... وغيرهم. وإنْ بقيت في آثارهم الأدبيَّة مسحةٌ رومانسيَّة تلوح لك الفَيْنة بعد الفَيْنة. وتلك سمة بارزة في آداب القوم يومئذٍ![2].

ولعلَّ في ذلك ما يلفت إلىٰ أسباب استيعاب السَّواد الأعظم من المهْجَريين العرب، أمثال: أمين الريحاني، وجبران، وجَبْرا، وتوفيق صائغ، ويوسف أسعد غانم... وغيرهم، لقوالب الإبداع الشِّعري لدىٰ الغربيين، ومن ثَم براعتهم في كتابة الشِّعر المنثور؛ جريًا علىٰ السَّنن الإنجليزي والأمريكي الذي يعوِّل في كتابة الشِّعر علىٰ الخيال الشعري أو المعاني الشِّعرية، وليس علىٰ الوزن والقافية. فأضحىٰ التَّحرر من الوزن والقافية تأثُّرًا بالثَّقافة الغربيَّة ومحاكاةً لقوالب الإبداع الشِّعري وأساليبه لدىٰ الغربيين، وأضحىٰ عقيدةً فنيَّة اعتنقها وآمن بها كثيرٌ من المهْجَريين العرب، فهذا ميخائيل نعيمة لا يرىٰ للأوزان والقوافي ضرورة في نَظْم الشِّعر، حيث يقول: «فلا الأوزان ولا القوافي من ضرورة الشعر، كما أنَّ

(1) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص38.

(2) يعلل ن. كونراد هذه الظاهرة بقوله: «إنَّ الأدب في بلدان الشَّرق يبدو مستعجلًا في هذه المرحلة من تطوره، فما أن دخل إلىٰ طريق الرومانسية حتىٰ اتجه أكثر نحو الواقعيَّة دون أن يتمكن من استيعاب هذا الطريق كما ينبغي». انظر: قضية الواقعية في آداب الشَّرق، مجموعة (قضايا تشكل الواقعية في آداب الشرق)، ص16.

المعـابد والطُّقـوس ليسـت من ضرورة الصَّلاة والعبادة، فرَّب عبارة منثورة، موسيقيَّة الرنَّة، كان فيها من الشِّعر أكثر مِمَّا في قصيدة من مئة بيت بمئة قافية»[1].

ويذهب نعيمة إلىٰ أبعد من ذلك، حيث يرىٰ أنَّ: «العروض لم يُسْئ إلىٰ شعرنا فقط، بل قد أساء إلىٰ أدبنا بنوع عام، فبتقديمه الوزن علىٰ الشِّعر قد جعل الشعر في نظر الجمهور صناعة، إذا أحاط الطَّالبُ بكلِّ تفاصيلها أصبح شاعرًا...»[2].

وقد صادفت دعوة ميخائيل نعيمة إلىٰ تحرير الشعر من الوزن والقافية هوًى - يومئذٍ - في نفوس كثير من الأدباء العرب في الشَّرق العربي، الذين طفِقوا يتَّبعون القالب الشعري الجديد، أمثال: مَي زيادة (1895-1941م) في لبنان، وأبو القاسم الشَّابِّي (1909-1934م) في تونس، ومحمد مهدي الجواهري في العراق، وعلي أحمد سعيد (أدونيس) (1930م - ....) في سوريا. وهو ما يعني أن الأدب العـربي آنذاك «كان مسـتعدًّا لاستيعـاب منجَزات الآداب الأجنبيَّة»[3]، لا سيما في ظل العلاقات الثَّقافيَّة المتبادلة بين العالم العربي وأوروبا وأمريكا، وتنامي حركة التَّرجمة التي أسهم التَّبشيريون، والمستشرقون في إذكاء جذوتها. فضلًا عن قناعة بعض رموز الثَّقافة والعلم في العالم العربي آنذاك - وعلىٰ رأسهم طه حسين - بضرورة الانفتاح علىٰ الغرب والاستفادة من منجَزه الثَّقافي والحضاري، رغم وجود معارضة قوية في البلدان العربية آنذاك لهذه الثَّقافة التي وصفوها بالاستعماريَّة والمعادية.

وترىٰ إيمانقولييفا أنَّ ظهـور الشِّـعر المنثـور في الآداب الشَّرقيَّة: «هو من

(1) الغربال: ميخائيل نعيمة، الناشر: نوفل، بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة عشرة، 1991م، ص116.
(2) المرجع نفسه، ص116، 117.
(3) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص38.

تلك العلامات التي تشير إلىٰ إعادة بناء نظام الفنون في فترة نشأة الأدب من طراز جديد، فلم يكن فن الشعر المنثور موجودًا في الأدب العربي قبل الريحاني وجبران»[1].

كما ترىٰ قوليفا أنَّ تجديد الريحاني وجبران في الأدب العربي ليس في كونهما أدخلا علىٰ الشَّكل الفني غير التَّقليدي فحسب، وإنَّما في كونهما أدخلا عليه مضمونًا اجتماعيًّا جديدًا، وهو ما يعني أنَّهما خلقا فنًّا جديدًا في الأدب العربي[2].

ولذلك اعتبر إ. كراتشكوفسكي أن موضوعات الشِّعر المنثور لدىٰ جبران هي موضوعات إنسانيَّة عامَّة[3]. وتلك ميزة تمتع بها شعر جبران الذي لم ينعزل عن محيطه الثَّقافي والحضاري الجديد، فقد «جاءت قصائده المنثورة مرتبطةً دائمًا بالواقع، ووصف الحياة العاديَّة، داعيًا إلىٰ الخير والعدالة»[4]، وترفع شعار (الأدب للحياة)، علىٰ حدِّ تعبير حارس طه الرَّاوي[5].

وتلفِت قوليفا في الصَّدد إلىٰ أنَّ عقيدة جبران، ونعيمة، والريحاني المسيحيَّة كانت أحد الأسباب التي/ «ساعدت علىٰ تسهيل الاتصالات الأدبيَّة، وإدراك الاكتشافات الفكريَّة الفنيَّة للمدارس الغربيَّة - وخلافًا للأدباء المسلمين - لم يكن صعبًا عليهم اختراق حاجز عدم القبول العقائدي بقِيَم الثَّقافة الغربيَّة، وكان أسهل عليهم إيجاد أسلوب مماثل لتأكيد هذه القيم في الثَّقافة القوميَّة، علىٰ أساس تلك المُثل الإنسانيَّة العامَّة»[6].

---

(1) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، المصدر السَّابق.
(2) المصدر نفسه.
(3) الأدب العربي في القرن العشرين: إ. كراتشكوفسكي، ص22.
(4) شعراء الرَّابطة القلميَّة: نادر جميل سراج، القاهرة، 1955م، ص309.
(5) الثورة الفكرية في أدب المهجر: حارس طه الرَّاوي، مجلة (الأديب)، بيروت، العدد (5)، 1954م، ص51.
(6) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص45.

المبحث الثاني

نتائج دراسات المستعربة إيمانقوليفا

لأدب المهجريين العرب

مِمَّا يُحمَدُ للمستعربة قوليفا في هذا السِّياق، هذا الكمُّ الكبير من المصادر والمراجع للمستشرقين الرُّوس الذين تناولوا دراسة الأدب العربي، لا سيما أدب روَّاد مدرسة المهجر، حيث ذكرت الدِّراسات والأبحاث العلميَّة التي سبقتها في هذا الموضوع وأفادت منها، أمثال دراسات إ. كراتشكوفسكي، وكذلك دراسات المستشرقة ك. اودي فاسيلييفا[1]، و آ. دولينينا[2]، و م. كوتيليا[3]، و ف. ماركوف[4] ...إلخ.

وتذكر قوليفا في أثناء عرضها لهذه الدِّراسات ما أفادت به كلُّ دراسةٍ منها في دراسات أدب مدرسة المهجر، وهو جهد يُضاف إلى جهود قوليفا في دراسة

---

(1) من دراساتها:

- نماذج من الأدب العربي الجديد (1880- 1925م)، موسكو، 1928م.
- نماذج من الأدب العربي الجديد (1880-1947م)، موسكو، 1949م.
- ميخائيل نعيمة، في كتاب الأقصوصات اللبنانيَّة، موسكو، 1959م.
- مقدمة لكتاب قصص الأدباء اللبنانيين، موسكو، 1958م. جوركي في اللُّغة العربيَّة (1955).
- ترجمة الأدب الرُّوسي في بلدان العرب، موسكو، 1957 م.

(2) من دراساتها:

- مقدمة لكتاب النَّثر العربي الحديث، موسكو، لينينغراد، 1961م.
- من تاريخ العلاقات الأدبية الرُّوسيَّة العربيَّة «الآباء والبنون» لميخائيل نعيمة، أخبار جامعة لينينغراد، قسم التَّاريخ واللُّغة والأدب، رقم 20، النشرة الرابعة، 1963م.
- من تاريخ الواقعية في الأدب العربي الجديد- مجموعة قضايا الواقعية في أدب الشَّرق، موسكو، 1964م.

(3) لها: أُطروحة دكتوراه بعنوان: (عقيدة جبران خليل جبران)، باكو، 1967م.

(4) له: مقدمة المختارات لـ«جبران خليل جبران»، لينينغراد، 1986م.

- انظر تلخيصها لأطروحة الدكتوراه للباحثة ل. تاز إلدينوفا في شعر الريحاني، ص18.

أدب مدرسة المهجر؛ حيث جمعت في دراستها هذه كثيرًا من آراء المستشرقين الرُّوس وأقوالهم في أدب المهْجَريين العـرب. فتلخص مثلًا ما جاء في كتاب (مقدمة المختارات لـ جبران خليل جبران) للمستشرق ف. ماركوف، فتقول: «ويصفُ مؤلِّف المقدمة جبران بأنَّه رومانسي، ذو اتجاه فلسفي. وهو يَعُدُّ أن الفكر الفلسفي لجبران تُشكِّلُ أساسَه فكرةُ اعتبار الإنسان مخلوقًا ساميًا يسعىٰ باستمرار إلىٰ التَّطور.

ويتوقف الباحث عند أعمال الكاتب، مثل: (الأجنحة المتكسرة)، و(دمعة وابتسامة)، و(السَّابق) وغيرها. واعتمادًا علىٰ هذه الآثار يتتبَّع مؤلِّف المقدمة تطورَ الرومانسيَّة التي تَقيَّدَ جبران بها علىٰ مدىٰ عطائه الإبداعي كلِّه.

ويعتبر ماركوف الأساس الفلسفي لأعمال الأديب ثوريا من حيث الجوهر، يُبنَىٰ علىٰ ثلاثة عناصر، هي: الحبُّ، والتَّمرد، والحرية. وللتَّأكيد علىٰ رأيه يتوجَّه الباحث إلىٰ كتاب نعيمة عن جبران، حيث يقول نعيمة عن جبران: «إنَّ جبران ثائرٌ متمردٌ، يدفع بالبشريَّة نحو حياة أكثر تطورًا وأخلاقًا». ويُشير المؤلِّف إلىٰ الصِّلة العميقة لأسلوب جبران بالتَّقاليد الكلاسيكيَّة للشعر العربي[1].

وتُبدي قولييفا اطلاعًا واسعًا وإلمامًا كبيرًا بدراسات المستشرقين الرُّوس التي تناولت أدب المهْجَريين العـرب بالدَّرس والتَّحليل، كما أنها تُبـدي قدرةً واضحـةً في الدِّفـاع عن وجهـات نظـرها العلميَّة، وذلك من خـلال نقـدها ومناقشتها لبعض الآراء الواردة في تلك الدِّراسات والأبحاث العلميَّة الجادة. تقول في هذا الصَّدد معلِّقةً علىٰ بعض ما جاء في أطروحة الدكتوراه للباحثة ل. تاز إلدينوفا بعنوان (شعر أمين الريحاني)، لينينغراد، 1986م. تقول: «وتُقسِّم المؤلِّفة الإبداع الشعري للأديب إلىٰ مرحلتين: مرحلة ما قبل العشرينيَّات، ومرحلة ما

(1) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب رواد مدرسة المهجر، ص17.

بعدها. ولدىٰ تحديد المرحلتين تنطلق الباحثة من طابع المواضيع التي تمتاز بها كلٌّ من المرحلتين... ويبدو لنا أنَّ تقسيم الإنتاج الشِّعري للريحاني إلىٰ مرحلتين بهذا الشَّكل الصَّارم، انطلاقًا من طابع المواضيع ليس له ما يسوِّغه تسويغًا تامًّا؛ لأنَّ المواضيع الرئيسة الرومانسيَّة تظلُّ باقيةً، وتتنوع في أعمال الريحاني كلها»[1].

كما تَظهر سَعةُ اطلاعها علىٰ الدِّراسات التي اعتنت بأدب روَّاد مدرسة المهجر في تفريقها بين الأبحاث العلميَّة، والكتابات غير العلميَّة التي كُتبت عنهم، فتقول في نهاية تلخيصها لدراسة ماركوف عن جبران: «إلىٰ هنا تنتهي الأبحاث العلميَّة في أدب جبران بالرُّوسيَّة»[2]. كما تلفِت إلىٰ عناية المستشرقين الرُّوس بأدب ميخائيل نعيمة أكثر من غيره من روَّاد مدرسة المهجر، فتقول: «ويمكن التَّأكيد علىٰ أنَّ الاستشراق الرُّوسي قد أعار الاهتمام لميخائيل نعيمة أكثر من غيره من ممثِّلي المدرسة السُّوريَّة الأمريكيَّة»[3]. ولعلَّ هذا الاهتمام كان نابعًا من اهتمام نعيمة نفسه بالأدب الرُّوسي، فقد كان يجيد الرُّوسيَّة[4]، الأمر الذي أتاح له قراءة روائع الأدب الرُّوسي لتولستوي Толстой (1828–1910م)،

---

(1) أعلام الأدب العربي الجديد – دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص18. وانظر كذلك: ص19 في تعليقها علىٰ دراسة خ. مومينوف لآراء ميخائيل نعيمة النَّقديَّة في كتابه (الغربال). – يُعدُّ كتاب (الغربال) «من أمهات كتب النَّقد والدَّعوة إلىٰ التَّجديد، ويسجل حركة التَّجديد في الشعر في أوائل القرن العشرين». (قصة الأدب المهجري، ص86).

(2) المصدر نفسه، ص17.

(3) المصدر نفسه، ص18. وتُحصِي قوليفا بعض الدِّراسات التي أدارها المستشرقون الرُّوس حول أدب نعيمة، ومن هذه الدِّراسات:

– مجموعة «الرَّابطة القلميَّة» وميخائيل نعيمة: عايدة إيمانقولييفا، باكو، 1966م.

– ميخائيل نعيمة عالمًا نظريًّا للواقعيَّة النَّقدية في الأدب العربي (أطروحة دكتوراه): خ. مؤمنوف، طشقند، 1975م.

– المنهج الإبداعي لميخائيل نعيمة (أطروحة دكتوراه): أ. بيليك، موسكو، 1984م.

(4) انظر حديثه عن تعلمه وقراءته بالرُّوسيَّة في: أبعد من موسكو ومن واشنطن: ميخائيل نعيمة، بيروت، 1970م.

وتشـيخوف Чéхов (1860-1904)، وغـوركي Горький (1868-1936م)، وديستوفيسكي. يقول نعيمة عن تجربته مع قراءة أعمال أعلام الأدب الرُّوسي: «وفي كتابات تولستوي عرفتُ كيف يهدر الدَّم الرُّوسي أنهارًا في سبيل الدِّفاع عن أرضه، وأي الآلام الجهنميَّة، هي الآلام التي تجرُّها الحرب، وعرفت كذلك نزعة الرُّوح الرُّوسيَّة إلىٰ السِّلم والصَّفح والمحبة وعدم مقابلة الشَّر بالشَّر...، وأمَّا غوركي فقد سلَّط أمام ذهني أنوارًا كاشفة علىٰ زوايا مظلمة من الحياة الرُّوسيَّة حياة المشردين والمحرومين والنَّاقمين علىٰ نظام يعيشون في ظلِّه، بل علىٰ كلِّ نظام. إنَّهم المنسيون السَّاكنون (في القاع)، تسير مواكب الحياة من فوقهم شاعرة بوجودهم، فكأنَّهم الغبار العالق بأذيالها، أو النِّفايات المطروحة في قواذيرها. وماذا أقول في تشيخوف - سيد القصاصين - الرُّوس وغير الرُّوس وفي تصويره الدَّقيق لجميع نواحي الرُّوس بكلِّ ما فيها من تفاؤلٍ وتشاؤمٍ، وانبساطٍ وانقباضٍ، وثروات وثوراتٍ»؟[1].

وتصرِّح قولييفا بأن أطروحة الدكتوراه للباحثة أ. بيليك: (المنهج الإبداعي لميخائيل نعيمة، موسكو، 1984م) من أهم ما كُتِبَ في دراسة المنهج الإبداعي لدىٰ نعيمة، حيث تصل أ. بيليك إلىٰ مجموعة من الاستنتاجات بشأن منهج نعيمة الإبداعي في مراحله الإبداعيَّة المختلفة. وتعلِّق قولييفا علىٰ ما وصلت إليه أ. بيليك من نتائج في هذا الصَّدد قائلةً: «قد نرىٰ أن أعمال نعيمة فيها جميع المناهج - الواقعيَّة التَّنويريَّة، والواقعيَّة النَّقديَّة، والرُّومانسيَّة، والسُّوريـاليَّة، والوجوديَّة - وأنَّ منهجه الإبداعي خليط من جميع النُّظم الفنيَّة الممكنة لا يمكن قبول ذلك؛ لأنَّ المنهج الإبداعي نظامٌ متكاملٌ لإدراك العالم»[2].

---

(1) انظر حديثه عن تعلمه وقراءته بالرُّوسيَّة في: أبعد من موسكو ومن واشنطن: ميخائيل نعيمة، بيروت، 1970م.

(2) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص20.

ولا تكتفي قولييفا بنقد آراء أ. بيليك ومناقشتها فيما يتعلق بملامح المنهج الإبداعي لدىٰ ميخائيل نعيمة، بل تعترض علىٰ بعض الاستنتاجات الخاصة بتشابه بعض أعمال نعيمة مع بعض أعمال الأدباء الرُّوس، فترىٰ أنَّ ما ذهبت إليه أ. بيليك من التشابه بين قصة (العاقرة) لنعيمة، وقصة (العواصف) للكاتب الرُّوسي أ. أوستروفسكي ليس موجودًا؛ إذ تقول: «فليس بين العملين أي تشابه، حيث إنَّ كاتيرينا في مسرحية أوستروفسكي إنسانة تحب ذاتها، وفي الوقت ذاته تشعر بالظلم الشديد من الآخرين، وعليه فإنَّ مشاعرها وأمانيها مُدَاسة، ففي حين تموت كاتيرينا مظلومة مضطهَدة بعد أن فقدت جميع صِلاتها بالحياة، تبدو بطلة قصة (العاقرة) مصمِّمة علىٰ الانتحار بسبب خيبة أملها في الرجل الذي أحبته»[1].

ولم تكتف قولييفا بالاطلاع علىٰ ما كتبه المستشرقون السُّوفيت في أدب المهْجَريين العرب، وإنَّما اطَّلعت علىٰ ما كتبه العربُ أنفسهم عن مدرسة المهجر، وقد رأت أنَّ هذه الكتابات صرفت جلَّ عنايتها إلىٰ دراسة تاريخ أدب المهجر وآثار ممثِّليه؛ ولذلك فهي «لا تختلف عن بعضها من حيث المحتوىٰ، فهي تُقدِّم كالعادة معلوماتٍ مفصلةً عن الهجرة الجماعيَّة من سوريا ولبنان إلىٰ أمريكا، وتستعرض صحافة المهجر، ونشاطات المنظمات الاجتماعيَّة الأدبيَّة المختلفة، وحياة بعض ممثِّلي أدب المهجر وأعمالهم، كما تمَّ التَّطرق فيها إلىٰ المسائل العامَّة المرتبطة بطابع أدب المهجر ومميزاته وبالأخص الشعر...»[2]. ومن ثَمَّ ترىٰ قولييفا أنَّه يمكن تقسيم هذه الدِّراسات إلىٰ ثلاث مجموعات:

---

(1) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص20.
(2) المصدر نفسه، ص21، 22.

- **الأولى**: دراسات ذات طابع تاريخي أدبي مكرَّسة لدراسة أدب المهجر العربي[1].

- **الثَّانية**: دراسات حول نشأة الفنون الأدبيَّة وتطورها[2].

- **الثَّالثة**: كتب عن حياة بعض النَّماذج البارزة لأدباء المهجر وإبداعها من أمثال جبران، ونعيمة، والريحاني[3]،[4].

وترى قوليفا أنَّه على الرغم من أهمية هذه الدِّراسات بمجموعاتها الثَّلاث «إلَّا أنَّ فيها نقصًا عامًّا ناتجًا عن استقراء الدَّارسين، وهو ينعكس بالدور الأول في الطَّابع الإعلامي الوصفي والاستعراضي لغالبية الدِّراسات المشار إليها، وفي استبدال تحليل الحقائق بالتَّأكيد عليها. ولم يُعر مؤلفو هذه الدِّراسات اهتمامًا كافيًا يحدد كُنْهَ هذه المدرسة الأدبيَّة ودورها في تطوير الأدب العربي الجديد»[5]. وإنَّما اكتفوا في الغالب بوصف أدب المهْجَريين بصورة عامَّة، كما أنَّهم لم يأخذوا «بالاعتبار إنتاج الرُّومانسيين الغربيين والكلاسيكيين وتأثيرهم على

---

(1) أمثال:
- التَّاطقون بالضَّاد في أمريكا الجنوبيَّة: الملثم البدوي، القاهرة، 1956م.
- الأدب العربي في المهجر: حسن جاد، القاهرة، 1962م.
- أدب المغتربين: إلياس قنصل، دمشق، 1963م.

(2) أمثال: الشعر العربي في مهجر أمريكا الشَّماليَّة: عباس حسن، ويوسف نجم، بيروت، 1957م.
- الشعر العربي في المهجر: محمد عبد الغني حسن، القاهرة، 1962م.
- التَّجديد في الشعر المهجري: مصطفى هدَّارة، القاهرة، 1957م.

(3) أمثال:
- مجددون ومقلدون: مارون عبود، بيروت، 1948م.
- أمين الريحاني: مارون عبود، القاهرة، 1952م.
- فلسفة ميخائيل نعيمة: محمد شفيق، بيروت، 1979م.

(4) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص21.

(5) المصدر نفسه، ص22.

الأدباء المغتربين»[1]. وإنْ كان عبَّاس حسن، ويوسف نجم قد ربطا في دراستهما (الشعر العربي في مهجر أمريكا الشَّماليَّة) بين تبجيل جبران للطَّبيعة وإعجابه بها وتأليه الرُّومانسيين الأوروبيين والأمريكيين لها. «فالغابةُ بالنسبة لجبران هي تلك الطَّبيعة التي كان قد ألَّهَهَا وردزورث، وكولردج، وبليك، وروسُّو، وتورو»[2]. كما ذَكَرَ عبَّاس ونَجم بشكلٍ عابرٍ تأثيرَ الأدب الرُّوسي على بعض روَّاد مدرسة المهجر أمثال: ميخائيل نعيمة، ونسيب عريضة، وإيليا أبو ماضي، فعقدا مقارنةً بين قصيدة (ليلة شتائيَّة) لبوشكين، وقصيدة المساء لإيليا أبي ماضي[3].

وتتطرَّق قوليفا إلى الدِّراسات التي كُتبت بالإنجليزية عن روَّاد مدرسة المهجر، فتعرض لدراسة خليل حاوي (جبران خليل - بيئته وشخصيته وأدبه، بيروت، 1963م)، ودراسة نديم نعيمة (ميخائيل نعيمة، بيروت، 1967م)، التي تعرِض لتحليل خليل حاوي لشخصية جبران وأدبه؛ الذي يرى أنَّ التَّضاربات في عالم جبران النَّفسي ترجع، بدرجة كبيرة، إلى تأثير حضارات الغرب والشَّرق في تكوينه النَّفسي والعَقَدِي، حيث تتداخل لديه التَّأملات الشَّرقيَّة الرُّوحيَّة مع الأفكار العقليَّة والاجتماعيَّة للغرب. كما يلفت خليل حاوي التَّأثير الشَّديد للفيلسوف جان جاك روسُّو على فكر جبران، بوصفه كان مُعلمًا فكريًّا للشاعر، حتى إنَّنا لا نكاد نقف على فكرة لدى جبران إلا وجدناها هي نفسها عند روسُّو[4]، فموقفه مثلًا إزاء المجتمع، هو نفسه موقف روسُّو من المجتمع، فكلاهما يفضح عيوبه، ويتأسَّفُ لعدم كماله، ومن ثَمَّ ينحاز كلٌّ منهما إلى الفقراء، فيعطف عليهم؛ لما سبَّبه لهم المجتمع من أذى بالغ[5].

---

(1) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص23.
(2) الشعر العربي في مهجر أمريكا الشَّماليَّة: عباس حسن، ويوسف نجم، بيروت، 1957م، ص250.
(3) المصدر نفسه، ص109-116.
(4) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص24.
(5) جبران خليل - بيئته وشخصيته وأدبه، بيروت، 1963م، ص167.

أمَّا دراسة نَديم نعيمة ابن شقيق ميخائيل نعيمة، فإنَّ أهميتها تأتي من كونها تقدِّم لأول مرة عرضًا منظَّمًا لتراث نعيمة الأدبي، ثم تقدِّم تحليلًا للعوامل التي أثَّرت في تكوينه الفكري، فيستنتج نديم نعيمة في هذا الصَّدد تأثير الكتب المقدسة، خاصَّةً الإنجيل، وكذلك فكر الأديب الرُّوسي تولستوي على فكر ميخائيل نعيمة[1].

وتستقصي إيمانقولييفا المصادر الأوروبيَّة التي عرضت لأدباء المهجر العربي، فتصرِّح بأنَّه: «لا يوجد لمستعربي أوروبا الغربيَّة دراسات خاصَّة حول المدرسة السُّوريَّة الأمريكيَّة، ولا ممثليها البارزين»[2]. وإنَّما كلُّ ما هنالك مجموعة من الملحوظات المدوَّنة في الدِّراسات ذات الطَّابع العام في تاريخ الأدب العربي، أمثال دراسة بروكلمان (تاريخ الأدب العربي) التي عرض فيها لتاريخ نشأة أدب مدرسة المهجر، فضلًا عن بعض المعلومات المقتضَبة عن أعلام الرَّابطة القلميَّة.

ودراسة جين جبران Jean Gibran ابنة عمِّ جبران، وابن عمِّه خليل جبران، بعنوان: (خليل جبران، حياته وإنتاجه) التي تعرض فيها لسيرة جبران المفصلة، وفقًا لما يرويه أقرباؤه عنه، ولما جاء في رسائله[3].

وترى قولييفا أنَّ كلَّ هذه الدِّراسات للسُّوفيت والغربيين لم تذكر بشكلٍ مرضٍ مصادر وجوهر وطابع العلاقة بين المدرسة السُّوريَّة الأمريكيَّة مع الأدبين الرُّوسي والغربي، كما أنَّها لم تحدد بدرجة كافية دور استفادة أدباء مدرسة المهجر من الأدباء الرُّوس والغربيين في نشأة المنهج الإبداعي لدى روَّاد

(1) ميخائيل نعيمة: نديم نعيمة، بيروت، 1967م، ص327.

(2) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص24.

(3) Jean Gibran and Khalil Gibran, Khalil Gibran, His Life and World, Boston, 1974.

هذه المدرسة، وهو ما أخذت قوليفا نفسها به، وألزمتها بالكشف عنه في دراستها لروَّاد مدرسة المهجر[1].

وقد قامت الدكتوره عايدة إيمانقولييفا بدراسة السِّمات الفنيَّة لأدب روَّاد مدرسة المهجر، وهم: ميخائيل نعيمة، وجبران خليل جبران، وأمين الريحاني، وهي دراسة مبنيَّة على استقراء نتاجهم الأدبي شعرًا ونثرًا وتحليله؛ للوقوف على أهم السِّمات الفنية التي ميَّزت أدبَ كلِّ واحدٍ منهم، وفقًا للمدرسة الأدبيَّة التي تأثَّرَ بها. مناقِشـةً آراء بعض النُّقاد العرب والغربيين في أدب هؤلاء الروَّاد الثلاثة.

- من السِّمات الفنيَّة لأدب جبران خليل جبران (1883-1931م):

تناولت إيمانقولييفا في دراستها (جبران خليل جبران، حياته وأدبه، باكو، دار العلم للنشر، 1975م) حياةَ جبران وأدبه، فوقفت على أهم سماته الشَّخصيَّة والفكريَّة والفنيَّة، فهو شخصٌ «مفعَم بالطموحات الديمقراطية، يشغلُ بالَه مصيرُ الإنسان العادي الكادح، وحالة المرأة العربيَّة...، والظُّلم الاجتماعي الواقع على اللبناني...، ويفهم الأديب أن المجتمع منقسم بين الأثرياء والفقراء، وأن الأخيرين يعملون بكدٍّ، ورغم ذلك يعيشون في فقر ويتعرضون للاستغلال، ليس فقط من قِبَل الأغنياء، بل ومن طرف رجال الدين»[2].

ومن ثَم جاءت كثيرٌ من أعماله مشغولةً بمعالجة كلِّ هذه القضايا الوطنيَّة الاجتماعية والاقتصادية في صورة ميلودراميَّة، تستأثر العاطفة فيها بنصيب وافر، فكتب: (صراخ القبور، ومضجع العروس، والأجنحة المتكسرة، ودمعة وابتسامة، وبين الكوخ والقصر... إلخ). إلَّا أنَّ بعض الباحثين العرب قالوا بغَلَبة الفرديَّة على أدب جبران، فذهبت يمنى العيد إلى أنَّ: «جبران لم يستطع أن

(1) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص26.
(2) المصدر نفسه، ص61.

يغوص إلى أعماق الأوضاع الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة القائمة، ولم يلحظ طبقة العمال»[1]. ولا توافق إيمانقولييفا هذا الرَّأي، بل تخالفه بأدلة من أدب جبران نفسه، فتقول: «ينبغي الأخذ بالاعتبار أنَّ مؤلَّفات جبران ينعكس فيها فقط الواقع اللبناني الذي لم ينشأ التَّعامل الرَّأسمالي فيه بشكل تامٍّ بعد...، فجبران واثق من أنَّ المستقبل النيِّر يجب خوض النِّضال من أجله، وأنَّ الحرية يتمُّ نيلها عن طريق الكفاح، وليس بالحلم»[2].

وتسوق قولييفا الأدلة من أدب جبران على انشغاله بقضايا وطنه الاجتماعية والاقتصادية، فتذكر قوله: «يقولون لي إذا رأيتَ عبدًا نائمًا فلا تُنبِّه لعله يحلمُ بحريته. وأقول لهم: إذا رأيتُ عبدًا نائمًا نبَّهتُه وحدَّثتُه عن الحرية»[3]. ألم ير جبران أنَّ «الوقوف جبنٌ، والنظر إلى الماضي جهالة؟»[4]. فكتاباته الأولى مملوءة بالحزن لمصير الأذلاء والمهانين[5].

وتلحظ الدكتوره إيمانقولييفا خلال تتبُّعها لتطور أدب جبران، وأهم السمات المميزة لمنهجه الإبداعي ما يأتي:

- غَلَبة العاطفيَّة على بداياته الأدبيَّة:

لحظت إيمانقولييفا من خلال دراستها للأعمال الأدبيَّة التي تعكس تطور المنهج الإبداعي لجبران تحوُّلَه «من عاطفيَّة النَّثر المبكِّر التي كانت مرحلةً طبيعية في إنتاجه إلى الرُّومانسيَّة»[6]. وهو تحوُّلٌ لا تنظر إليه قولييفا بمعزل عن التَّحولات

(1) مجلة (الطريق)، بيروت، العدد (2)، 1970م، ص107.
(2) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص61.
(3) جبران: المجموعة الكاملة لمؤلفاته، بيروت، 1959م، (حفنة من رمال الشاطئ)، ص491.
(4) المصدر نفسه، (مدينة الماضي)، ص290.
(5) مقدمة لمجموعة (النثر العربي الرومانسي في القرنين التاسع عشر والعشرين): آ. دولينينا، لينينغراد، 1981م، ص14.
(6) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص62.

الفكريَّة والإبداعيَّة للآداب العالميَّة، التي ظهرت فيها العاطفيَّة في المرحلة الانتقالية بين التنويرية والرومانسية، بوصفها تيارًا أدبيًّا يمثِّلُ ردَّة فعل للعقليَّة التَّنويريَّة[1]، يُعنىٰ بالاهتمام بالمعيشة، وعالم الأشياء، وتفاصيل الحياة العادية، والمناظر الطبيعية التي تتجاوب دائمًا والحالة النفسية للأبطال، والتي تؤكد علىٰ الشاعرية الوديعة[2].

وترىٰ قوليفا أنَّ جبران، وإنْ كان قد تأثَّر في هذه المرحلة العاطفيَّة من إنتاجه الأدبي بإبداع جان جاك روسُّو علىٰ حدِّ زعم بعض الدَّارسين العرب والغربيين، فإنَّه «لا يجوز عدم الأخذ بالاعتبار أن البلاغة العاطفيَّة لجبران مَدِينةٌ لتقاليد السَّرد العربي الكلاسيكي بالدرجة الأولىٰ»[3]، الذي تغلب عليه الحساسيَّة المفرِطة واللَّهجة المزوَّقة[4].

- استيعاب جبران لمنهج الرومانسيَّة الأمريكية:

ترىٰ الدكتوره إيمانقولييفا أن استيعاب جبران لمنهج الرومانسية الأمريكية بدت آثاره واضحةً بشكل لافت في مجموعته (دمعة وابتسامة) التي صدرت في الفترة من (1903-1908م)، وغلب عليها الطابعُ العاطفي، لا سيما في قصائد الشعر المنثور التي تعكس التَّأملات الفلسفية لجبران في الحياة والفن والجمال والحب... إلخ، تلك التي تجسِّدها طائفة من السؤالات الكثيرة الماثلة في أعماله، مثل («زيارة الحكمة»، و«أيتها الريح»، و«الحديث السِّري»... إلخ). وهي أسئلة تثير قضايا مهمة وفقًا لمذهب جبران الرومانسي، مثل: الاعتراف بكرامة الفقراء،

(1) المصدر نفسه، ص62.
(2) المصدر نفسه، ص68، 69.
(3) المصدر نفسه، ص63.
(4) الأدب العربي في أمريكا (1895-1915م): إ. كراتشكوفسكي، أخبار جامعة لينينغراد، المجلد الأول، 1982م، ص20.

والتعاطف معهم، وإدانة الجهل الأخلاقي ونمط الحياة الجائر للأثرياء... إلخ. إنَّ جبران لم يتبنَّ قضية الفقراء بوصفها قضيةً محليةً يعاني منها فقراء بلده لبنان وأمَّته العربية، إنَّما يعالجها بوصفها قضيةً إنسانيَّةً عامةً تمثل ثورةً على الظلم بكل ألوانه وأطيافه، فمثله مثل جميع الرومانسيين الذين يوحِّدهم النضال من أجل كرامة الإنسان وحريته الروحية والاجتماعية، وهو ما جسَّدت أعماله («دمعة وابتسامة»، و«بين الكوخ والقصر»، و«المجرم»... إلخ)؛ ذلك لأنَّه يؤمن مثل كولريدج، ووردزورث، ووَيْتمان أنَّ الفنان أو قل الشاعر إنسان مُختار من قِبل الله تعالى، فهو نبيٌّ، فالشاعر كما يعرِّفه جبران نفْسٌ شريفةٌ هبطت مع نِعم الآلهة، والشعر ليس رأيًا تعبِّر الألفاظ عنه، بل هو أنشودة تتصاعد من جرحٍ دامٍ أو فمٍ باسمٍ[1].

وجبران متأثرٌ، في كثير من أدبه في تلك المرحلة، بفلسفة التسامي لـ إمرسون، كما تعلَّم من والت ويتمان أن يرى في شخص الشاعر إنسانًا أرضيًّا يتأمل في سعادة البشر ويناضل من أجل مستقبلها، كأنَّه نبيٌّ يشق الطريق إلى المستقبل[2].

وآمن جبران مثله في ذلك مثل الرومانسيين، بأنَّ الجمال والحب هما ذلك النور الذي يُضيء قلب الشاعر ومخيلته، ومن ثَم يجب على الشاعر أن يلفتَ الناسَ المشغولين بهموم الحياة اليومية إلى الجمال؛ ولذلك راح يعظِّم من دور الشخصية الرومانسية ورسالتها على الأرض، على نحو ما نرى في أعماله: («مدينة الماضي»، و«تحت الشمس»، و«القوة العمياء»... إلخ). فالإنسان عنده هو حجر زاوية المخلوقات.

---

(1) جبران خليل جبران: رمل وزبد، بيروت، 1965.

(2) أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب روَّاد مدرسة المهجر، ص77.

وقد سار جبران على نهج الرومانسيين في نظرته للطبيعة، فالطبيعة عنده ليست مجرد خلفية في أعماله الأدبيَّة، بل هي إنسان كامل له شخصيته، فكلُّ مظهر من مظاهر الطبيعة يؤدي رسالة إنسانية سامية، تنكشف معها كنوز النفس البشرية، حتى تكاد أن تمتزج النفس البشرية بالطبيعة معه[1]، الأمر الذي دفعه إلى الاستغراق في أسرار الطبيعة والامتزاج بها، كما يعلل كراهيته التمدُّنَ والحضارة البرجوازية في حياة البشرية، وهو مشايع في ذلك للرومانسيين الغربيين أمثال وردز وورث، وشيللي، وجون ويلسون.

*

(1) عبد الكريم الأشتر: النثر المهجري، القاهرة، 1968م، ص88.

نتائج البحث

خلص البحث إلى النتائج الآتية:

1- لم تعزل عايدة إيمانقولييفا A.ImanQolayeva - في دراستها للأدب العربي الحديث - الأدب عن الوضع الحضَّاري الذي لازَمَ نشأته، بكلِّ جوانبه السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة.

2- اتصفت عايدة إيمانقولييفا بتجرُّدها، وتمتُّعها بالنَّزاهة العلميَّة في تناولها للدِّراسات الشَّرقيَّة.

3- رأت عايدة إيمانقولييفا أنَّ دراسة الآثار الأدبيَّة لرواد مدرسة المهجر، وتأثُّرهم بالرومانسيَّة الغربيَّة، والواقعيَّة النَّقديَّة الروسيَّة، إنَّما هي دراسة لتأريخ تأثر الأدب العربي الجديد بالاتجاهات الأدبيَّة والفنيَّة المختلفة في الأدب العالمي.

4- رأت عايدة إيمانقولييفا أنَّ أهمية دراسة أدب مدرسة المهجر تأتي من عدَّة جهات، أهمها:

- الوقوف على دور الاتجاهات الأدبيَّة والفنيَّة المختلفة في الأدب العالمي في تشكيل السِّمات الجماليَّة والفكريَّة للأدب العربي المعاصر.

- الوقوف على مظاهر تأثُّر أدباء مدرسة المهجر بالاتجاهات الأدبيَّة والفنيَّة المختلفة في الأدب العالمي.

5- بدت مظاهر هذا التأثُّر بالاتجاهات الأدبيَّة والفنيَّة المختلفة في الأدب العالمي - من وجهة نظر عايدة إيمانقولييفا - واضحةً في استيعاب جبران والريحاني للرومانسية الغربية، بوصفها منهجًا إبداعيًّا، عبَّرا من خلاله عن موقفيهما إزاء متطلَّبات الواقع العربي يومئذ. في الوقت الذي اعتمد فيه ميخائيل نعيمة على مبادئ الواقعيَّة النقديَّة التي استقاها من إبداعات الكلاسيكيين الرُّوس ومنهجهم.

6- يُضاف إلى جهود عايدة إيمانقولييفا في دراسة أدب مدرسة المهجر؛ جَمْعها في دراستها هذه كثيرًا من آراء المستشرقين الرُّوس في أدب المهْجَريين العرب وأقوالهم، وتلخيصها.

7- يمكن التَّأكيد على أنَّ الاستشراق الرُّوسي قد أعار الاهتمام لميخائيل نعيمة أكثر من غيره من ممثِّلي المدرسة السُّوريَّة الأمريكيَّة.

8- أظهرت دراسة عايدة إيمانقولييفا عن رواد مدرسة المهجر سَعة اطلاعها على الدراسات التي اعتنت بأدب روَّاد مدرسة المهجر، وفي تفريقها بين الأبحاث العلميَّة، والكتابات غير العلميَّة التي كُتبت عنهم.

❋

المصادر والمراجع

أولًا- العربيَّة:

(أ) الكتب:

- آ. دولينينا، لينينغراد، مقدمة لمجموعة (النثر العربي الرومانسي في القرنين التاسع عشر والعشرين)، 1981م.
- إ. كراتشكوفسكي، الأدب العربي في أمريكا (1895-1915م)، أخبار جامعة لينينغراد، المجلد الأول، 1982م.
- إدوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، الطبعة الأولى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة 2006م.
- أسعد دوراكوفيتش، دراسات في أدب البوسنة والهرسك وفي الأدب العربي، ترجمة: جمال الدِّين سيد محمد، الطبعة الأولى، المركز القومي للتَّرجمة، العدد (1907)، القاهرة.
- إغناطيوس كراتشكوفسكي، الأدب العربي في القرن العشرين، لينينغراد، 1964م.
- إلياس قنصل، أدب المغتربين، دمشق 1963م.
- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته، بيروت، 1959م.
- خليل حاوي، جبران خليل - بيئته وشخصيته وأدبه، بيروت، 1963م.
- عايدة إيمانقولييفا، أعلام الأدب العربي الجديد - دراسة في أدب رواد مدرسة المهجر، مؤسسة حيدر علييف، باكو - أذربيجان، 1427هـ/2006م.
- ـــــــــــــ، ينابيع العلاقات الثقافية والأدبية العربية الروسية، مجموعة (الشرق الأوسط والأدنى)، باكو، 1976م.
- عباس حسن، يوسف نجم، الشعر العربي في مهجر أمريكا الشَّماليَّة، بيروت، 1957م.
- عمر محاميد، فلسطين في أدب الرحالة الرُّوس، مركز الدِّراسات الرُّوسيَّة، 1995م.
- ـــــــــــ، مقدمة في الأدب العربي والاستشراق الرُّوسي، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، الطبعة الأولى، 2015م.
- ف. لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار الفارابي، بيروت - لبنان، الطبعة التاسعة، 2007م.
- فرانشيسكو غابرييلي، دفاع عن الاستشراق، مجلة ديوجين، العدد (50)، 1965م.
- فيليب حتِّي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، بيروت، 1959م.
- نادر جميل سراج، شعراء الرَّابطة القلميَّة، القاهرة، 1955م.
- نديم نعيمة، ميخائيل نعيمة، بيروت، 1967م.

- محمد عبد المنعم خفاجي، قصة الأدب المهجري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، 1973م.
- مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الرُّوسي، عالم المعرفة 1991م.
- ميخائيل نعيمة، أبعد من موسكو ومن واشنطن، بيروت، 1970م.
- ـــــــــــــ، الغربال، الناشر: نوفل، بيروت – لبنان، الطبعة الخامسة عشرة، 1991م.

(ب) المقالات:

- آسيا حاجي زاده، عايدة إيمانقولييفا – العالمة الأذربيجانيَّة التي كرَّست حياتها للدِّراسات العربيَّة والشَّرقيَّة، وكالة أنباء أذر تاج – باكو. 9 أكتوبر، 2018م.
- زعيم خنشلاوي، أذربيجان فردوس الله في قلب القوقاز: ترينـد نيوز، باكو، 15 أكتوبر 2009م.

(ج) المجلات:

- مجلة (الطريق)، بيروت، العدد (2)، 1970م.

ثانيًا- الأجنبيَّة:

- Aida İmanquliyeva - Azərbaycan şərqşünaslığının parlaq siması Dünyamalı VƏLİYEV - Xalq qezeti 10. 2015 . Baku.
- Jean Gibran and Khalil Gibran, Khalil Gibran,His Life and World, Boston, 1974.

● ○ ●